سؤال

إعجاز القرآن الكريم

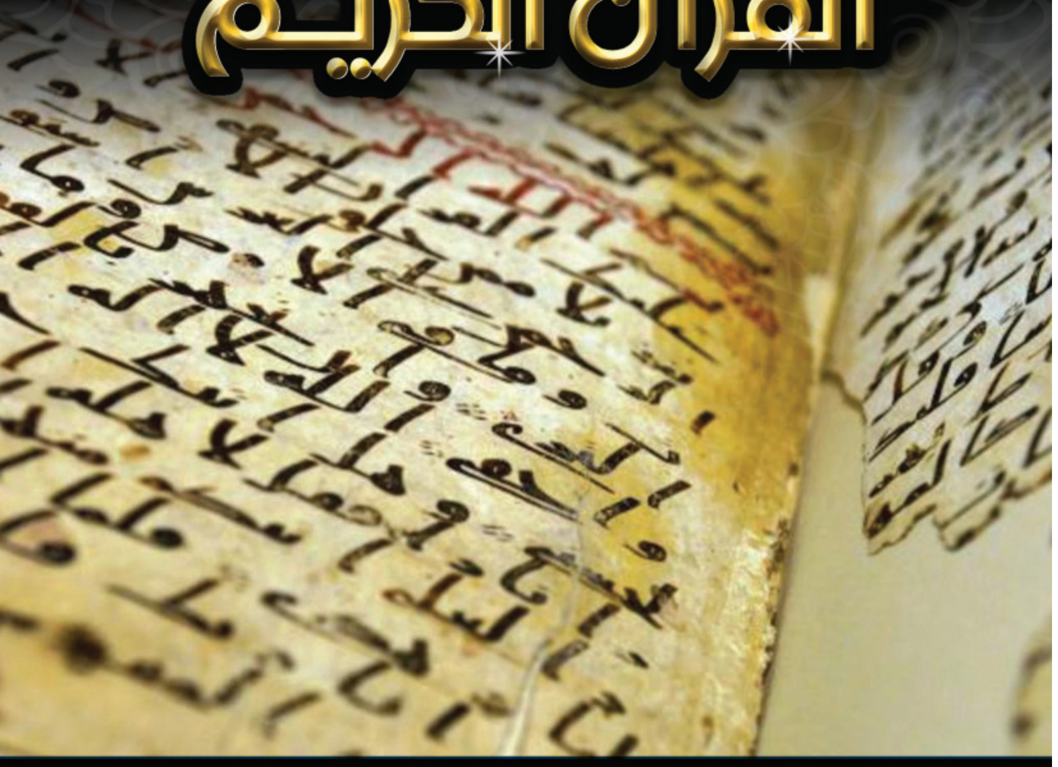

ع

مطوية رقم (٤)

مسلسل رقم (١٣٩) ٢٠١٩

مبادرات طابة
TABAH INITIATIVES

بسم الله الرحمن الرحيم

جاء كلُّ نبيّ مؤيَّدًا بمعجزة تدلُّ على صدْقه، ويعجز الناس عن الإتيان بمثلها؛ فكان من معجزة سيدنا عيسى -عليه السلام- إحياء الموتى، وإبراء الأكْمَهَ والأبْرَصَ بإذن الله، ومن معجزة سيدنا موسى -عليه السلام- انقلاب العصا حيّةً تسعَى، وكذلك جاء النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- بمعجزات كثيرة، أعظمها وأهمّها القرآن الكريم.

والمعجزة أمرٌ خارقٌ للعادة قُصِد به إظهار صدْق مَن ادّعى أنه رسول الله تعالى.
ولمّا كانت رسالته باقيةً جاءت معجزته باقيةً ظاهرة للناس في كل زمان، وكان عجْزُ الناس عن الإتيان بمثلها سبيل إثبات نبوّته -صلى الله عليه وسلم- في كل عصر.

.

كيف تعامل العرب في عصر النبوّة مع إعجاز القرآن؟

كان العرب الفُصحاء البُلغاء مهتمين جدًّا بجوانب البلاغة والبيان، فلما جاءهم القرآن علموا أنه ليس من مثْل كلامهم، بل أقرّ كبراؤهم بذلك، فقال الوليد بن المغيرة -وكان زعيم قريش في الفصاحة- لقومه بعد أنْ سمع من القرآن: «والله مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالأَشْعَارِ مِنِّي، وَلا أَعْلَمَ بِرَجَزِهِ، وَلا بِأَشْعَارِ الْجِنّ، وَاللّٰه مَا يُشْبِهُ الّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَاللّٰه، إنّ لِقَوْلِهِ الّذِي يَقُولُ لَحَلاوة، وإن عليه لَطَلاوة، وإنَّه لَمُثمرٌ أعلاه، مُغدِقٌ أسفله، وإنه لَيَعلو ولا يُعْلَى عليه»[1] .

ولكنَّهم أصرُّوا على العِناد والاستكبار، فتحدَّاهم القرآن الكريم أن يأتُوا بمثْله فعجَزوا مع طول الزمان، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة:42].

ما وجه الإعجاز في القرآن الكريم؟

وجوه الإعجاز في القرآن الكريم كثيرة، منها:

1. الإعجاز اللّغوي:

إن الإعجاز إنما وقع في الأصل بنظْم القرآن، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، وجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة، مع خلوّه من الألفاظ والمعاني القبيحة، ووقوعه بلا تناقُض ولا اختلاف في جميعه على منهاج واحد؛ فالله

1 - رواه الحاكم في المستدرك، من حديث سيدنا عبد الله بن عباس. والبيهقي في شعب الإيمان.

تعالى أحاط بكل شيء علمًا وأحاط بالكلام كلّه علمًا، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن جاء بلفظة تصلح أن تلي الأولى، أما البشر فمحلُّ الجهل والنسيان والذهول، ترى البليغ ينقّح الخطبة أو القصيدة حولاً ثم ينظر فيها فيغير فيها، وكتاب الله سبحانه -كما قال المفسر ابن عطية رحمه الله-: «لو نُزِعَت منه لفْظة ثم أُدِيرَ لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد»، وهذا هو أهمّ وأعظم وجُوه الإعجاز[٢].

٢- الإعجاز في الأخبار:

ومن الإعجاز ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة، وعن قصص الأولين وسائر المتقدمين، وعما في الضمائر من غير أن يظهر ذلك من مُخْفيها بقول أو فعل، كإخباره عن اليهود أنهم لا يتمَنَّوْنَ المَوْتَ أبدًا.

ولما كان من إعجازه الإخبار عن المغيَّبات، فإنه لا يمرّ عصْر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء ممَّا أخْبر به أنه سيكون؛ ممَّا يدلّ على صحة دعْواه، فكيف لإنسان أُمِّيّ عاش منذ أربعة عشر قرنًا أن يُخبر بهذا كله من تلقاء نفسه؟! إلا أنْ يكون ما جاء به وحْيٌ من عند الله تعالى.

٣- الإعجاز التشريعي:

ومنه ما في القرآن الكريم من الأحكام والتشريعات الصالحة للتطبيق على خير مثال، فانتظام أوامر القرآن ونواهيه وتعليماته على نحوٍ شامل راقٍ يَضمن للناسِ العدل والرحمة ولا يؤدي إلى التناقض، هو خير دليل على كونه من لدُن حكيم خبير

2- تفسير ابن عطية، (1/ 25) دار الكتب العلمية.

، في حين أن القوانين الوضعية التي يضعها البشر لا تخلو من التناقض أو الظلم مهما تكرَّرت مراجعاتها، ومهما تَواتَر عليها المُحرِّرون والمُصحِّحون.

٤- الإعجاز الروحي أو النفسي:

والمراد به: تلك الهزّة وذلك الأثر الذي يُحدِثُه القرآن في نفس مَنْ يقرأه، حتى ولو لم يكُنْ مؤمنًا. ومن العجيب أن القرآن نفسه عبَّر عن هذا المعنى في قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:32].

وقال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:12].

وقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب﴾ [الرعد:82].

ومثل ذلك لا يكاد يوجد في كتابٍ آخر غير القرآن.

ولعلّ الإمام الخطابي -رحمه الله- كان من أوائل مَنْ تعرّضُوا لهذا الوجه من الإعجاز؛ يقول: «قلت: في إعجاز القرآن وجْه آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذّ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن ـ منظومًا ولا منثورًا ـ إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها

الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحوّلوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مُسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيمانًا».

هل يمكن القول بأن هذه الوجُوه جميعًا تُشكل إعجاز القرآن مجتمعة؟!

نعم، بل هذا هو الصواب؛ لأن الإعجاز البلاغي مع كونه أعظم وجوه الإعجاز -كما ذكرنا- إلا أنه ليس من الجيّد الاعتماد عليه وحده في بيان إعجاز القرآن؛ لأمريْن:

1- الأول:

أنّ غير العرب لا يمكنهم معرفة هذا الوجْه إلا من طريق التقليد لا الذوق، أعني أنهم لا يعرفون عن هذا الوجه إلا أن العرب عجزوا عن الإتيان بمثله، فغير العرب أكثر عجزًا من باب أولى.

2- الثاني:

أنك حينما تقرأ قصيدة بليغة تنبهر بها أول مرة، ثم يقل انبهارك بها شيئًا فشيئًا من كثرة التعَوّد، والأمر في القرآن ليس كذلك، بل إنك كلما قرأته وكلما تدبرته كثرت معانيه في نفسك، وكثر تلذّذك به، ولعلّ هذا هو معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يَخْلَقُ على كثرة الرد»، أي: لا يذبل، ولا يبلى من كثرة التكرار، كما يحدث هذا في غيره من النصوص، إذن فليس الإعجاز متوقفًا على البلاغة وحدها.

كيف يكون القرآن معجزًا لغير العربي أو للضعيف في اللغة العربية؟

قد تخفى علينا وجوه البلاغة لعدم بلوغنا مرتبة العرب وقت نزوله في سلامة الذوق وجودة القريحة وتمييز الكلام، ولكن لما قامت الحجة على العرب الأوائل، وعَلِمنا عجزهم فنحن بالعجز عن الإتيان بمثله أولى؛ لأنهم كانوا أرباب الفصاحة وأهل التحدِّي فلم يستطيعوا أن يأتوا بسورة منه، فنحن عن ذلك أكثر عجزًا، على أنّنا إذا لم نستطع الوقوف على وجه الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، فإنّ الوجوه الأخرى التي ذكرناها يمكن لكل أحد من العرب وغير العرب أن يقف عليها بسهولة، وفي الترجمات المعاصرة لمعاني القرآن الكريم يظهر إعجازه من حيث انتظام الشرائع والإخبار بالغيوب وغيره.

ما أهمّ الكتب التي تعرّضت لقضية الإعجاز؟!

نظريًا هناك كتب كثيرة في هذا المجال منها: البرهان للزركشي، والإتقان للسيوطي، ومناهل العرفان للزرقاني، ورسالة الرماني، ورسالة الخطابي.

وتطبيقيًّا:

دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، وتفسير الكشاف للزمخشري. وكتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي، وكتاب النبأ العظيم للشيخ محمد عبد الله دراز.